اللبنانيون في افريقية

بقلم كامل مروّه

للاستاذ كامل مروّه كتاب جديد اسمه « نحن في افريقية » (١ جمع فيه ذكرياته ومعلوماته في رحلته الاخيرة الى مهاجر اللبنانيين في افريقية الغربية ، دارساً ماضي الهجرة وحاضرها ومستقبلها . وقد رأينا ان ننشر له هذا البحث ، الذي خصّ به « المشرق » ، اشارةً الى ما في كتابه الكبير.

تيّار الهجرة يجرف مهاجرينا في البدء الى العالم الجديد، اي الى اميركة الشمالية ثم الى اميركة الجنوبية. وكانت مرسيلية المرحلة الاولى في الطريق اليها . وفيها على الارجح سمع مهاجرونا لاول مرة ببلاد مغمورة تدعى افريقية الغربية ، فغيّر انفار معدودون منهم مجرى الطريق ، واتجهوا اليها بدلاً من متابعة السفر الى الديار الاميركية ، اما رغبة في المغامرة ، او لعجزهم عن دفع اجرة السفر الباهظة من مرسيلية الى العالم الجديد ، او لان حالتهم الجسدية لم تكن تطابق الشروط الصحية القاسية المفروضة في اميركة على المهاجرين الجدد .

وليس بالاستطاعة تعيين التاريخ الذي بدأت فيه الهجرة نحو افريقية الغربية ولكن يمكن تحديده بصورة تقريبية حول سنة ١٨٨٠ . وقد ظلّ عدد المهاجرين الى افريقية ضئيلاً جداً في ذلك العهد ، ولم يتلبس صفة هجرة متواصلة الا في آخر القرن التاسع عشر .

وقد بذلت جهوداً كبيرة لمعرفة اسم المهاجر اللبناني الاول الى افريقية الغربية فلم افلح لانعدام السجلات والوثائق ، كما انه ليس بالاستطاعة تحديد المستعمرة الاولى التي استقبلته . والمرجح ان تكون السنغال اول مستعمرة دخلها

١) كامل مروّه : نحن في افريقية : الهجرة اللبنانية السورية الى افريقية الغربية : ماضيها ، حاضرها ، مستقبلها . — ٣٢٤ ص . متوسطة مزدانة بالرسوم ، مع خارطة كبيرة ملوّنة — نشر « المكشوف » بيروت ، ١٩٣٩

مهاجرونا في المنطقة الفرنسية ، وسيراليون في المنطقة البريطانية . واذا قابلنا بين حالة الاثنتين في ذلك العهد صحّ لنا اعتبار السنغال اول ما وطأته اقدامهم ، لانها عتبة افريقية الغربية جغرافياً .

وقد قام المؤلف الفرنسي « دوبورد » ببحث دقيق عن تاريخ الهجرة الى السنغال خرج منه انه في اوائل سنة ١٨٩٢ وصل الى شواطئ سانيغامبيا اربعة او خمسة مهاجرين لبنانيين وتوزعوا بين سان لويس (السنغال) وكوناكري (الغينه الفرنسية) وكانوا يرتدون الملابس الشرقية (الشروال وتوابعه) ويحملون معهم بضائع زجاجية حقيرة ابتاعوها من مرسيلية ، فيعرضونها على الزنوج في الساحات العامة باسعار بخسة .

وكانت الحركة التجارية قويّة يومئذٍ في هاتين البلدتين بسبب تردّد زنوج الداخلية عليهما عن طريق الانهر ، فصادفت بضاعة المهاجرين الجدد اقبالاً حسناً . واستطاع احدهم الحصول على مساعدة من احدى الشركات التجارية الفرنسية في كوناكري ، فساعد بدوره رفاقه ، وتحسّنت حالتهم جميعاً .

وبعد قليل وصلت الاخبار الى مرسيلية تنبئ بنجاح هؤلاء المغامرين ، وفيها كثير من المبالغة . وقد حدثني احد مهاجرينا القدماء ان الاشاعات التي انتشرت يومئذٍ جعلت الناس يتوهّمون ان الذهب يتدفق كالمطر على المهاجرين الاول . وكان لهذه الاشاعات تأثيرها السريع ، فعدل كثيرون عن متابعة السفر الى اميركة ، واتجهوا صوب افريقية الغربية على المراكب الشراعية او على بواخر الشحن .

تطور حركة الهجرة

وقد بلغ عدد مهاجرينا في افريقية الغربية في سنة ١٩٠٠ اربعمائة مهاجر تقريباً ، منهم ٢٧٦ مهاجراً في المناطق الفرنسية . ثم اخذ عددهم يتزايد رويداً حتى بلغ الاربعة آلاف اثناء الحرب العظمى . ومنذ سنة ١٩٢٤ ، اشتدت الهجرة واستمرت في تزايد مطرد حتى اصبح عدد مهاجرينا الآن احد عشر الفاً رجالاً ونساء واطفالاً . وكانوا يتوزعون في آخر سنة ١٩٣٨ على الشكل التقديري التالي :

المستعمرات الفرنسية :	دكار	١٦٠٠
	السنغال	٢٨٠٠
	السودان	٤٠٠
	الغينة	١٦٠٠
	شاطئ العاج	٧٠٠
	الداهومي	٤٠
	النيجر	١٠
	الموريتانيا	٢٠
	المجموع	٧١٧٠
المستعمرات الانكليزية :	غامبية	٣٥٠
	سيراليون	١٠٠٠
	شاطئ الذهب	١٠٠٠
	نيجيرية	٧٠٠
	المجموع	٣٠٥٠
المناطق الباقية :	الغينة البرتغالية	٤٠٠
	ليبيرية	١٠٠
	التوغو	٨٠
	المجموع	٥٨٠

المجموع العام ١٠٨٠٠

وينتمي اكثر مهاجرينا الى الاقضية التالية مرتبة حسب كثرتهم العددية: المتن، صور، بيروت، البقاع، جزين، صيدا، الشوف، كسروان، البترون، طرابلس، مرجعيون، عكار.

ومهاجرو بلدة بيت شباب هم الاكثر عددًا في كل افريقية الغربية اذ يقاربون الالف. ويأتي بعدهم مهاجرو صور وعددهم ٨٠٠، بيروت ٦٠٠، قب الياس ٤٠٠، طرابلس ٤٠٠، جويا ٣٥٠، بينو عكار ٣٠٠، كفرحونه ٢٠٠، بكفيا ٢٠٠، الزرارية ٢٠٠ الخ.

ويتراوح عدد المهاجرين السوريين في كل افريقية الغربية بين ٧٠٠ و٨٠٠ مهاجر، معظمهم من دمشق (٢٥٠) وحمص وحماة (٢٥٠).

اشغال مهاجرينا

عشرة الاف مهاجر ، ماذا يفعلون في القارة السوداء ؟

المهاجر اللبناني السوري في افريقية الغربية تاجر بطبيعته وطبيعة الاحوال المحيطة بقدومه . فالتجارة هي اساس العمل في القارة السوداء ، واضمن واسرع منفذ الى الثروة ، واسبابها متوافرة بوجه الاجمال لكل انسان . ولهذه الاسباب اقبل مهاجرونا على التجارة منذ قدومهم ، ولا تزال اكثريتهم الساحقة تمارسها حتى الآن .

ورغم ان انتشار الحضارة في افريقية قد فتح آفاقاً مادية جديدة ، فان مهاجرينا ظلوا متمسكين بالتجارة . وقد بدأت الزراعة تمثل دوراً رئيسياً في المستعمرات منذ بضع سنوات ، ولكن اقبال مهاجرينا عليها ضئيل جداً . ولا يزيد عدد المزارعين منهم عن المئة نفس ، اكثرهم يتعاطون زراعة الموز في الغينه الفرنسية ، والقهوة والكاكاوا في شاطئ العاج .

وبوجه الاجمال ، يمكن القول بان ٩٠ بالمئة من مجموع مهاجرينا يمارسون التجارة . والباقون يحترفون المهن الاخرى العادية كالحلاقة ، والخياطة ، وادارة المطاعم والخانات ، والمواصلات . وليس لمهاجرينا اي أثر في الصناعة لان الصناعة نفسها مفقودة في كل افريقية الغربية ، ما عدا صناعات قروية يدوية حقيرة . ويشتغل بعض مهاجرينا منذ بضع سنوات في استخراج الذهب والمتاجرة به (في سيراليون وشاطئ الذهب وشمال الغينه الفرنسية) .

دور مهاجرينا في التجارة

والتجارة من دكار حتى لاغوس ترتكز على عنصر واحد ، وهو المحاصيل الزراعية . يجني الزنجي فستق العبيد ، وزيت الباليست ، وبزره ، والكولا ، والكاكاوا ، والقهوة ، والصمغ ، والقطن ، والارز ، وغير ذلك من المحصولات المزروعة او الطبيعية ، ثم يبيع محصوله — في اكثر الاماكن — من مهاجرينا ، ويشتري بالثمن ملابس وبضائع وخرضوات .

وفي كل مستعمرة من مستعمرات افريقية الغربية شركات اوربية كبرى ، يرد براسطتها ويخرج ٩٩ بالمئة من واردات البلاد وصادراتها ، فهي سيدة التجارة تتصرف بمقدراتها كما تشاء وتفرض ارادتها على الاسواق بلا منازع . وعلى هامش

هذه الشركات تقوم تجارة مهاجرينا .

قد يبدو دور مهاجرنا ثانوياً لاول وهلة . ولكنه اساسي في الواقع ، لان مهاجرنا هو صلة الوصل الرئيسية بين الشركات والعبيد ، فهو يشتري البضائع من الشركات بالجملة ونصف الجملة ويبيعها من العبيد بربح قليل بعد طول العناء . وهو الذي يشتري المحاصيل من العبيد ويبيعها بدوره من الشركات بربح ضئيل ايضاً .

هكذا تمرّ تجارة البلاد بين يديه ذهاباً واياباً بين الشركات والزنوج مرور « الترانزيت » . ولا يعلق منها سوى القليل وفي هذه الحلقة المفرغة تدور تجارة المهاجر اللبناني السوري .

وكانت الشركات تعتمد تدياً وكلاء من الاوربيين والزنوج للقيام بدور الوسيط في بيع بضائعها ومشترى المحصولات لها . فلما دخل مهاجرنا الميدان شعرت الشركات باهليته ، ورأت ان الوكيل الاوربي يكلفها غالياً ، والوكيل الاسود يعرضها دائماً للخسارة بسبب عقليته وطباعه البعيدة عن التجارة ، فعمدت الى وضع ثقتها بمهاجرينا وتزويدهم ببضائعها ، ومشترى المحصولات على ايديهم .

ميزات مهاجرنا التجارية

والواقع ان مهاجرنا يتمتع بمؤهلات تجارية تساعد على نجاحه في القارة السوداء رغم خلوّه من رأس المال المادي والعلمي والاجتماعي . فهو يعيش عيشة بسيطة تسهل اختلاطه بالزنوج اختلاطاً مباشراً ، والتفاهم معهم وهو بطبيعته الشرقية بسيط ، يعامل الزنوج بتواضع وكرم . واحياناً يغالي في التراخي معهم لدرجة يتوهمون معها انهم ذوو منة عليه .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان معيشة مهاجرينا لا تحتاج الى نفقات مادية باهظة كمعيشة التاجر الاوربي ، فيستطيع القناعة بالربح الضئيل مما يزيد في الاقبال عليه ويمكن الزنوج من الحصول على حاجاتهم باسعار رخيصة تتفق مع فقرهم وبفضل هذه الميزات اصبح مهاجرنا خبيراً بطباع الزنوج وميولهم ، يعرف ما يحبون من البضائع ، ويعرف كيف واين ومتى يجب تصريف هذه البضاعة او تلك . وهو داهية في تجارته مهما كانت صغيرة ، ماهر في اساليبها ، يستطيع ان يوسعها ويضيقها بسهولة مستحيلة على غيره .

واللبناني السوري هو التاجر الابيض الوحيد الذي يدين الزنجي مبالغ كبيرة من الاموال والبضائع على ان يفيها في ايام الموسم . وهذا الدين لا يستند في اكثر الاحيان الى اي ضمانة او كفالة ، بل الى امانة الزنجي فقط . فاذا اعاد المال في الموسم كان ربح مهاجرنا كبيرًا ، والا خسر خسارة بالغة . وكثيرًا ما يكون الموسم سيئاً ، فيفقد التاجر كل امل باستعادة دينه مهما اكثر من ملاحقة المدين .

وقد كان شعار تجارة مهاجرنا ولا يزال : بيع البضائع للزنوج بربح ضئيل ، وبيع المحصول للشركات بربح ضئيل . وبفضل هذه الخطة تكثر الكميات المبيعة والمشتراة ، وتؤلف الكثرة ربحاً كافياً يعوض — بصورة نسبيَّة — عن الربح الناشئ عن بيع القليل بالسعر الغالي .

على ان جهاد مهاجرنا ليس انانياً ، ولا تقتصر فائدته عليه وحده . ذلك ان لافريقية الغربية وجهين : وجه السواحل المنتق ، ووجه الداخلية القطري . ومهاجرنا هو الابيض الوحيد الذي تجرأ على اقتحام مجاهل الداخلية في اكثر المستعمرات ، وتحمل شظف العيش ومتاعب التجارة فيها ، ممهدًا الطريق امام غيره ، ناقلاً معه بشائر المدنية . ولولاه لظلت داخلية اكثر المستعمرات صحاري قاحلة وادغالاً مجهولة ، لا يفيد العالم شيئاً من ثروتها الطبيعية ، ولا يفيد سكانها المتوحشون من فضائل المدنية .

لقد حمل مهاجرنا معه بضاعة الابيض العراقية الى زنوج الداخلية ، فدهشوا منها واقبلوا عليها . ثم وجدوا ان المال هو الوسيلة الوحيدة للحصول عليها ، ولا سبيل للوصول الى المال الا ببيع المحصولات ، فاضطروا الى الاشتغال بالزراعة وجني المحصول . وهكذا عود مهاجرنا الزنوج العمل ، وبالتالي تزايد انتاج البلاد وانفتحت فيها اسواق جديدة للتجارة .

ثروات مهاجرينا

اما النتيجة المادية التي تعود على مهاجرنا من عمله فانها لا توازي جهوده . فالشركات ، كما اسلفت ، تستأثر بالارباح الكبيرة بفضل ضخامة رساميلها وخبرة مديريها واتساع تجارتها . وبين العشرة الاف مهاجر لا يوجد اكثر من اربعة او خمسة مثرين اغناهم تقدر ثروته بربع مليون ليرة انكليزية ، والثاني بسبعين الفًا .

وهناك مئة غني تتراوح ثرواتهم بين الخمسين الف ليرة انكليزية والعشرة الاف . ويقدر عدد الميسورين بثلاثة الاف . اما الباقون فان مقدرتهم المادية لا تزيد عن حد الكفاية الشخصية . وبينهم بضع مئات لا يملكون شيئاً . ورب قائل ان ثروة مهاجرنا يجب ان تعد كبيرة مهما كانت ضئيلة نسبياً ، لان دخل الارض الافريقية معدم . وهـذا القول صحيح في نظر من يصدر حكمه عن بعد . ولكن من شاهد مثلي جهاد مهاجرنا وتلمس تضحياته الجبارة ، يدرك ان ارباحه لا تعدل عشرة بالمئة مما يستحق . ولا بد من الملاحظة بان الارباح في افريقية كبيرة لمن يملك رأس مال كبيرًا . ولما كان مهاجرنا الجديد فقيرًا ، فانه يقنع بالربح الضئيل في البدء ويعيش عيشة الاقتصاد الشديد كي يكوّن رأس مـال كافياً . والعادة ان يبلغ مناه في معدل عشر سنوات اذا حالفه الحظ والتوفيق .

وكما ان الارباح كبيرة في افريقية ، فان نفقات المعيشة توازيها نسبياً . ولهذا السبب يضطر مهاجرنا الى التقتير في نفقاته ليوفر القليـل من ارباحه . فالتقتير على النفس هو الركن الاول والآخر في تكوين ثروة المهاجر .

الحملات الاجنبية على مهاجرينا

ومع ذلك ، ورغم جميع المتاعب والمصاعب ، لعب الحسد في قلوب الاغيار ، فثاروا الشغب على مهاجرينا في بعض المستعمرات في ظروف مختلفة . وقد مرّت هذه العواصف بسلام ، وكانت نتيجتها الرئيسية تقديم برهـان جديد على ان العشرة الاف لبناني في افريقية الغربية هم عنصر حيوي في تجارة ١٠ مليوناً من البشر ، في بلاد مساحتها ستة ملايين كيلومتر مربع .

ويجب الاعتراف بان خصوم مهاجرينا ليسوا من ممثلي الحكومة ولا من ممثلي الشركات الكبرى ، بل من صغار التجار الاجانب الذين ابتزع منهم مهاجرونا السبق التجاري ، وحاولوا محلهم في دور الوساطة بين الشركات والزنوج ، اي في تجارة المفرق .

وقد بدأت هذه الحركة السلبية في مستعمرة الغينه الفرنسية في سنة ١٨٩٨ وانتقلت منها الى السنغال والسودان ، لكن لم تعد على اصحابها باي نتيجة . وعقب الحرب اعتدى الزنوج على مهاجرينا في سيراليون ، ثم في ليبيرية . ثم ساد

هدوء نسبي طويل في كل المستعمرات . ولكن موجة الهجرة الكبيرة في سنة ١٩٣٦—١٩٣٧ كانت سبباً في تجدد الحركة في السنغال، فاضطرت الحكومة الى التدخل وفرض قيود شديدة على الهجرة لمنع دخول المهاجرين الجدد . ويجب الاعتراف بان هذه التدابير كانت في مصلحة البلاد ومصلحة مهاجرينا القدماء ايضاً .

واذا كان مهاجرونا لا يشكون ضغطاً حكومياً عليهم وعلى مصالحهم ، فانهم يتألمون في بعض المستعمرات من نظرة الاجانب المغوية اليهم ، لاسباب ناشئة عن الفرق في مستوى المعيشة والثقافة والحياة الاجتماعية . ولا شك ان جانباً كبيرًا من المسؤولية في ذلك يقع على مهاجرينا انفسهم .

والتنظيم الاجتماعي موجود — مبدئياً — في العواصم حيث ألفت كل جالية جمعية لها . ولكن اكثر الجمعيات لا يعيش طويلاً ولا يثمر بسبب المنازعات الشخصية والطائفية . وليس في افريقية الغربية اندية لمهاجرينا ، سوى نادٍ واحد في كانو (نيجيرية) وآخر في موبتي (السودان الفرنسي) .

مصاعب المعيشة في افريقية

ويتضافر الجهل والفقر وسوء المناخ على جعل معيشة مهاجرنا صعبة . والواقع ان المعيشة لا يمكن ان تكون مرضية في بلاد تؤلف فيها الكينا والشربات عنصرًا ضرورياً في الطعام اليومي ، وتتعاون فيها رداءة الطقس مع الرطوبة والحرارة على ابتزاز آخر نقطة من الدم النقي النشيط في جسم الابيض ، فلا تبقى منه سوى عظام ناتئة من تحت الجلود ، او لحم هش خال من الحيوية الدموية .

والمهاجر اللبناني يتحمل كل هذه المصاعب بصبر عجيب يعجز عنه متشفو الهند وقد رأيت بعض مهاجرينا يعيش عيشة شبه مستحيلة في صحاري السنغال ، وغابات الفينه ، و « برور » سيراليون ، وادغال شاطئ العاج . ولولا نشاط مهاجرنا وطموحه وطول اناته لما استطاع ان يتحمل مرّ العيش في داخلية المستعمرات ، حيث لا يزال الزنوج على الفطرة ، وحيث ضروريات الحياة معدومة تقريباً .

المهاجر اللبناني السوري في افريقية الغربية يتناسى راحته وحاجة جسمه ، ويضحي بزهرة شبابه في جحيم القارة السوداء وادغالها لكي يجمع الثروة المنشودة ، التي تؤمن له مستقبله ومستقبل اولاده ، وتضمن له قبل كل شيء العودة الموفقة الى الوطن . فهذه العودة هي ابنة المهاجر العزيزة ، يحرص عليها ويغذيها بالآمال كلما دبّ في نفسه يأس الجهاد ومزقت قلبه حسرة الغربة . ولا يذكر المهاجر وطنه الا وفي فؤاده شعاع مؤلم من الحنين والشوق .

وافريقية الغربية ليست اميركة ولا اوربة ، ولا تزال متأخرة عن بلادنا براحل . والحياة فيها شاقة ، والحالة الصحية لا تطاق . فليس ثمة رابطة تربط مهاجرنا بها سوى المصلحة المادية وحدها .

والواقع ان بين مهاجرينا بضع مئات من المكتفين الذين افلحوا في تكوين ثروات حسنة . وهم يرغبون رغبة شديدة في العودة الى وطنهم . ولكنهم مع ذلك لا يعودون ، ولا اعتقد انهم سيعودون اذا دامت حالة بلادنا على هذا المنوال .

اما السبب في تفضيلهم البقاء في افريقية على الرغم منهم فهو خوفهم من تبديد ثروتهم اذا عادوا الى الوطن . ففي افريقية يستطيعون ان يتابعوا استثمار اموالهم بالاساليب التي اعتادوها . اما في الوطن فان هذا مستحيل اذا لم يتوفر من يمهد لهم الطريق مقدماً ويشق لهم ميادين الاستثمار والعمل ، ويخطو بهم الخطوة الاولى على الاقل .

وما دامت هذه العناصر الايجابية مفقودة ، فان الامل بعودة المهاجرين المكتفين مفقود .

هل افادتنا الهجرة الى افريقية ؟

بعد هذا العرض السريع لاحوال المهاجرين ، اتساءل : هل استفادت بلادنا من الهجرة الى افريقية الغربية ؟

لن اتسرع في الجواب على هذا السؤال سلباً او ايجاباً ، بل ابسط للقارئ بعض الاعتبارات التي يجب الاستناد اليها في اصدار الحكم .

جميع الذين هجروا بلادنا الى افريقية او غيرها كانوا معدمين مادياً . اي

انهم غادرونا ولا رأس مال لهم سوى نشاطهم واملهم . وهكذا لم تخسر بلادنا بخروجهم منها اي خسارة مادية مباشرة ، ولم تنقص ثروتها الاهلية شيئاً . وكتب النجاح لقسم وافر منهم ، فاخذوا يمدون ذويهم بالمساعدات ، وبذلك استفادت البلاد فائدة مادية عملية . وكثيرون منهم ارسلوا مبالغ طائلة لشترى الاراضي او لانشاء المباني او لمساعدة المشاريع العمرانية ولاسيما في القرى .

هذا من الوجهة المادية والعمرانية . ولكن هناك وجهات اخرى لا يمكن اغفالها عند البحث في هذه القضية ، وفي مقدمتها قضية اليد العاملة .

لا اغالي اذا قلت ان ٨٠ بالمئة من مهاجرينا في افريقية الغربية تزحوا اليها من القرى لا من المدن . اي انهم كانوا مزارعين وعمالاً في الزراعة . والزراعة تظل العنصر الاساسي في حياة بلادنا مهما كانت مهملة . فخسارتها بضعة آلاف من رجالها هو خسارة بالغة تؤثر تأثيراً مباشراً عليها وعلى مستقبلها .

وجميع المهاجرين يكونون في شرخ الشباب عندما يغادرون وطنهم ، وبذلك يخسر الوطن بذهابهم خسارة فورية ناشئة عن تناقص عنصر الشباب فيه ، وهو العنصر الاكثر حيوية وفعالية في تطور البلاد .

وفي المهجر ينصرف الشاب المهاجر الى العمل ، ولا يفكر بالزواج الا بعد تحقيق امانيه ، اي بعد سنوات طويلة من هجرته بحيث يكون قد اشرف على المرحلة الاخيرة من شبابه او بدأ مرحلة الكهولة . وفي هذه الحالة ينقص النسل نقصاناً كبيراً . وقد شعرت بلادنا بهذا النقص ، فهناك قرى تكاد تكون خالية من السكان بالنسبة الى عدد سكانها الاصلي كالزوارية ، وجويا ، ومزيارة ، وبيت شباب ، وبدور .

ثم ان الهجرة الى الخارج شجعت القرويين المهاجرين عن الهجرة الى البلاد الاجنبية على الهجرة الى المدن الكبرى ، فاصبحت الخسارة مضاعفة من عدة نواح .

تطور فائدة البلاد من المهاجر

قلنا ان الشاب المهاجر يغادر بلاده معدماً ، ويبدأ العمل بجد ونشاط . واثناء ذلك يمد ذويه بمساعدات معتدلة بالنسبة لارباحه . ولكنه يوفر القسم الاكبر ليكون لنفسه رأس مال . فبلادنا اذن تنال نصيباً ضئيلاً من ارباح

المهاجر ، بينما يبقى النصيب الاوفر في المهجر

ومتى توافرت الثروة لدى المهاجر يعمد الى التزوج . ومتى اصبحت زوجته بجانبه انقطعت الصلة المادية بينه وبين ذويه الباقين في الوطن ، اذ ينصرف الى العناية بعائلته الجديدة المقيمة معه ، او يحصر كل ارباحه بها ، موظفاً رأسماله في املاك غير منقولة كالعقارات .

هكذا تستفيد بلادنا مادياً من المهاجر في السنوات الاولى من هجرته ، عندما يكون عوده المادي رطباً ودخله ضئيلاً في طور التكوين . ولكن عندما يصبح مثرياً ذا عائلة ، ويستقر وتستقر معه اموره ، تزول كل فائدة مادية منه ، ولا تبقى بينه وبين وطنه سوى رابطة الذكريات ، ورابطة الجنسية التي يحملها . وهي في كل حال رابطة معنوية لا تفيد البلاد بشيء لانها غير منظمة ، ولا موحدة بين جميع المهاجرين ، وليس لها اي مخرج او اية نتيجة عملية .

ثم ان الرابطة المعنوية تصبح واهية اذا طال عليها الزمن . وهي مرتبطة بحياة المهاجر نفسه . فاذا قضى نحبه في المهجر وترك ثروة لاولاده ، فانهم يستأنفون عمله في المهجر دون التفكير بوطن لا يعرفونه ، اذ يكونون قد اصبحوا ابناء المهجر الجديد ، ولدوا وترعرعوا ونشأوا فيه . لا ذكريات لهم تربطهم بوطنهم الاصلي ولا روابط حاضرة ، فمن الطبيعي ان يندمجوا في محيطهم الجديد وان يضيعوا فيه الى الابد .

ضرورة العناية بالمهاجرين

يتضح مما ذكرت ان البلاد تستفيد فائدة مادية محدودة في السنين الاولى من هجرة المهاجر . وعندما يصبح رب عائلة تضيع الفائدة المادية وتبقى المعنوية . وعندما يطول عليه العهد او يخلفه اولاده الناشئون في المحيط الجديد تضيع الصلة المعنوية ايضاً ، فتصبح خسارة البلاد بالمهاجر مثلثة : تخسره ونسله ، تخسر عطفه وشعوره المعنوي ، تخسر نشاطه وثمرة جهوده .

والسبيل الوحيد لتلافي هذه الخسارة هي عودة المهاجر قبل فوات الاوان ، او عند ما يصبح ميسوراً على الاقل . وليس لي في هذا المقال ان اتبسط في شرح قضية العودة وضرورتها واساليب تحقيقها ، ولكنني اذكر بايجاز ان قضية

مهاجرينا في افريقية ، تتطلب معالجة سريعة في الامور التالية على الاقل :

اولاً ــ انشاء قنصلية لبنانية (ومن الافضل لبنانية سورية) في دكار مثلاً ، تكون ذات فروع ملحقة في كل عواصم المستعمرات المهمة . فيصبح القنصل صلة الوصل بين المهاجر ووطنه ، وضمانة لاستمرار هذه الصلة على مر الاجيال . ويكون القنصل وسيلة لتحسين حالة مهاجرينا الاجتماعية ورفع مكانتهم وازالة المنازعات فيما بينهم الخ .

ثانياً ــ انشاء دائرة واسعة للمهاجرين ، لا كالدائرة الصغيرة الموجودة حالياً في بيروت ، بل دائرة كبيرة ذات ميزانية كافية ، لتكون مرجعاً للمهاجر في كل الاستشارات والمعلومات والتنظيمات والمشاريع الاستثمارية . بل ماذا يمنع من انشاء مديرية او وزارة للهجرة ، مـا دامت الفائدة المنتظرة من ذلك تفوق الفائدة التي تعود على البلاد من اي وزارة اخرى !

ثالثاً ــ تحسين المقاطعة المهلة في البلاد التي ينتمي اليها اكثر مهاجري افريقية كجبل عامل وعكار .

لقد بات معروفاً ان ما ينقص ابناء البلاد ليس العزم ولا النشاط ، بل المحيط الذي يمكن ان يبرزوا فيه ، بدليل ان الصفات العملية الجبارة تجلت في ابنائنا عند هجرتهم لان المهجر هيأ لهم الجو المناسب لاظهار اهليتهم . فاذا سعت حكومتنا الى خلق هذا الجو في البلاد نفسها ، فان جميع ابنائها يصبحون بهمة المهاجر وعزمه ، ويقلعون عن التطلع الى ما وراء حدودهم .

واذا استطاعت الحكومة ان تعمل عملاً جدياً لاجتذاب المهاجرين ، فانني اضمن للبلاد فائدة سنوية تفوق كل ما استفادته حتى الآن من سياحة الناطور والمختار ، وتعوض عليها كثيراً من خسارتها الاقتصادية السنوية المتواصلة . اما اذا دامت الحالة على هذا المنوال ، فانه لن يمر ربع قرن حتى تنقطع كل صلة بين مهاجرينا الافريقيين ووطنهم كما حدث بيننا وبين مهاجرينا في اميركة ، فلا يبقى لنا منهم غير الاسم ، ولا يبقى لهم منا غير الذكرى البعيدة ، وعندئذ نتحدث عنهم ويتحدثون عنا كما يتحدث الناس عن اشباح الماضي .

كان في تديم الزمان ... ... ورحم الله ما كان !